الفصل الثاني: الأدب والوطنية

يقول الأديب الكبير الدكتور زكي مبارك:

«أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبب العرب في بلادهم بالإشادة لما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق».

ويرى أننا نتحدث كثيرًا عن الوطنية، والوطنية لا تقوم إلا على أساس فكرة الوطن؛ والوطن يُحَبُّ حين يكون لنا فيه أصدقاء أخلاء، فإن المودات والعلاقات هي أساس التقديس للأفكار والأشخاص.

كما يرى ضرورة الالتفات إلى أدب الأمة العربية في كل مكان... في الحجاز، في العراق، في الشام، في مصر... في السودان... وعلى هذا فمن الوطنية عند زكي مبارك التحبيب في كل بلد من بلاد الأمة العربية...

يقول: «أنا لم أدخل بلدًا إلا أحببته أصدق الحب؛ لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان».

ويرى أن الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا إلى الأديب، وأن الأمم لا يقام لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظًّا من الروحانية الفكرية والأدبية؛ لأن الفكر والأدب لا يكونان من أنصبة الشعوب إلا بعد النضج المنشود في العقول والقلوب... والأديب المفكر مسئول أمام قوة الضمير... وخدام الوطن في ميدان الأدب أعز وأشرف من أن تصدهم عن الواجب عوادي نُكْران الجميل.

وحين اعتقله الإنجليز عام ١٩١٩ أيام الثورة المصرية طُلب منه حتى يخرج من المعتقل أن يكتب إقرارًا بأنه لن يشتغل بالسياسة، فرفض كتابة الإقرار؟ وكان جوابه بأنه ليس سياسيًا بل وطنيًا.

ويرى أن من الوطنية الاهتمام بالمكتبة فلها أهمية كبيرة وخاصة عند الكتاب، وأن على الكاتب أن يقرأ كل كتاب تصل إليه يده؛ لأن في كل كتاب فكرة تنفع لو تنبه القارئ، وأن الكتاب كالصديق لا تعرفه من أول مرة، وإنما تعرفه وتصل إلى أسراره بعد تجارب طوال.

ويقول في على صفحات جريدة البلاغ في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٤٩: «إنني اعتكف في المكتبة حين أريد التنفس، وحين أريد أن أرى أرواحًا مضى على ذهابها من الأرض أجيال وأجيال...».

ويقول في صفحة ٤٨ من كتابه «وحي بغداد»: «وغرفتي موحشة لا يؤنسني فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين».

ويرى أيضًا ضرورة إحياء الأدب القديم؛ ونقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية مشيرًا إلى وطنية الجيل الماضي في اهتمامه بالتراث.

وطالب بأن يقوم المجمع اللغوي في مصر بإحياء الأدب القديم... وما دام الشيء بالشيء يذكر أقول: إنه كان ينتصر لفكرة إنشاء مجمع اللغة العربية في مصر في حين كان سلامة موسى يهاجم الفكرة.

يقول المؤرخ العربي المصري أنور الجندي في كتابه «المساجلات والمعارك الأدبية» ص٣٨ يقول: إن زكي مبارك هاجم سلامة موسى في ذلك قائلًا:

«وقد عارض سلامة موسى في إنشاء المجمع اللغوي وكانت حجته أن إنجلترا ليس فيها مجمع لغوي، ولو كان يفقه ما يقول لعرف أن إنجلترا لم تستغن عن المجامع اللغوية إلا بفضل ما في أبنائها من التماسك الأدبي والقومي والاجتماعي. فليس في إنجلترا شخص مثل سلامة موسى في التجني على لغته والدعوة إلى احتقار ماضيها... ولكن التماسك الاجتماعي ضعيف في مصر، ولا بد من هيئة علمية وأدبية تقي الناس شر التقاليع في عالم الأدب».

وبعد... أقول: إنه من العجب العجاب أن المجمع اللغوي والذي أنشئ في مصر بدعوة زكي مبارك وغيره من أصحاب الغيرة الوطنية... لم يضم إليه زكي مبارك؟!

ومن ذلك يقول على صفحات جريدة البلاغ في ١٩٤٩/١١/٢٥:

«لا يهمني أن أكون عضوًا في المجمع اللغوي... وإنما يهمني أن أنشئ أدبًا يشتغل بدرسه أعضاء المجمع اللغوي».

والآن مع بعض مقالاته في التغني بالوطنية.

***

الوفاء للوطن الغالي[١]

عند هذه الكلمة ترنَّم الهتَّاف بعد انتصاف الليل... فَمَن الهاتف؟

هو أديب من قراء (الرسالة) أراد أن يستفهم عن معنى القول بأن المسيحية تؤرِّخ في كل أرض بميلاد المسيح، وتؤرِّخ في مصر بعذاب الشهداء.

وما كدتُ أنتهي من شرح هذا المعنى، حتى هتف ذلك الأديب داعيًا أن يجعل الله الوطنية من عقائد الشباب في هذا الجيل.

فمن أنت أيها الفتى؟

وما قيمتُك في نفسك وفي أنفس إخوانك؟

هل تعرف وهل يعرفون أن اهتمامك بكلمة في تمجيد وطنك هي الشاهد على أنك مصري أصيل؟

أنا أدعو لك بطول العمر مع العافية أيها الفتى الوطني، حرسك الله وحماك!

اسمع يا صديقي ثم اسمع:

---

(١) العدد ٤٧٣ تاريخ ٤٢/٧/٢٧، مجلة الرسالة.

في كل أرض يكون للشجر والزهر والنبات موسم يقظة وموسم خمود، إلا مصر، فاليقظة فيها دائمة في جميع الأحايين.

وفي كل أرض يوجد الماء في مكان وينعدم في مكانات، إلا مصر، فالماء موجود في كل مكان. وأين من يصدق أن سكان جبل المقطم يستقون الماء من بئر هناك؟!

وفي كل بلد تجاهد الأرض في الزراعة موسمًا، ثم تستريح موسمين أو مواسم، إلا مصر، فأرضها تصلح للإنبات مرتين في العام الواحد أو مرات.

وطنك، يا صديقي، جميلٌ وثمينٌ ونفيس.

كان وطنك محور التوازن الدولي قبل أن يعرف بنو آدم ماهية التوازن الدولي، وكان وطنك أول وطن تنبه إلى أن الله واحد بلا شريك، وفي سبيل هذا المعنى الدقيق جاهد أخناتون الشهيد...

وكان وطنك، يا بنيَّ، أول وطن حارب السماء عن علم أو عن جهل.

وهل من القليل أن يكون الطغيان المصري أخطر طغيان حاربه القرآن؟

وطنك، يا صديقي، مذكورٌ بمحاسنه ومساوئه في جميع البلاد، وستُنسى أممٌ وشعوب، ولا يُنسى وطنك؛ لأنه معترك الرشد والغي، والهدى والضلال، في جميع الأجيال.

وطنك هو الوطن، وبلادك هي البلاد.

وطنك هو الميزان في القضاء، قضاء الأمس وقضاء اليوم، والنصر لمن يظفر بقلبك، فلمن قلبك؟

قلبك لوطنك، وعقلك لوطنك، وهواك لوطنك، فلا تشرك به أحدًا، ولا يخطر في بالك أن في الدنيا جمالًا أنضر من جماله، أو حمى أعزَّ من حماه، وإن تناوشه الطامعون من كل جانب، فسيظل وطنك وحدك، ولن يكون لأعدائه غير العذاب في ميادين القتال، وبئس النصيب!

أدر المذياع إلى أية جهة من جهات الأرض، فستسمع اسم مصر... وسائلْ شركات البرق في أي بلد من البلاد فستخبرك عن مبلغ اهتمامها بأخبار مصر... واستطلع المكنون من ضمائر الزعماء والملوك، فسترى أن مصر مُنْيَة الجميع، وبين المُنية والمنيَّة صلات.

هل تعرف الحكمة التي تقول: رُبَّ أكلة منعت أكلات؛ تلك الأكلة هي مصر، فما طمع فيها طامع إلا قصمت ظهره. ولا دخلها غاصب إلا كانت وبالًا عليه، ولو استفتيت التاريخ لأفتاك ثم أفتاك.

كنت أشارك المنفلوطي في السخرية من قول مصطفى كامل: «لو لم أكن مصريًّا لتمنيت أن أكون مصريًّا».

واليوم أعرف أن المنفلوطي كان من المخطئين الخاطئين، وأن كلمة مصطفى كامل أصدقُ من الصدق وأصوبُ من الصواب؛ ذلك بأن مصر غنية من جميع النواحي، وعظيمة من جميع الجوانب، وليس فيها شبرٌ إلا وهو مبعث حياة أو مصدر تاريخ.

وما اقتتلت الأهواء، ولا اشتجرت الآراء، ولا اعتركت القلوب، ولا انتضلت العقول بأقوى وأعنف وأخطر مما يثور فوق الأديم الصحيح في هذه البلاد.

يوم كان السلطان لأهل الشرق كانت مصر أول أمة تقاوم طغيان الشرق.

وحين كان السلطان لأهل الغرب كانت مصر أول أمة تحارب طغيان الغرب.

وهل ينسى التاريخ أن عزَّة مصر هي التي جعلت وإليها عَمْرًا أول وال يخالف عن أمر الخليفة العادل عمر بن الخطاب؟

وهل ينسى التاريخ أن السلطنة العثمانية في أيام عزها المأثور عجزت عن تتريك الأمة المصرية؟

وهل ينسى التاريخ أن الإنجليز الذين سيطروا على كثير من ممالك الأرض عجزوا عن مقاومة العزة المصرية؟

نحن برعاية الله وكرامة مصر أعزاء وأعزاء وأعزاء.

وطني وبلادي:

إلى الفتيين العظيمين «م.ن.ج» و «ع.ع».

- وما اكتفيت بالتلميح إلا لأنني لم أستأذنهما في النص على اسمهما بالتصريح -إلى هذين الفتيين العظيمين أوجه القول:

إن بلادنا لن تُضام أبدًا، ولن تكون لغير أهليها، ولو تألبت عليها جيوش البر والبحر والهواء.

بلادنا باقية باقية، في عزة وعافية، ولن تنال منها المطامع الدولية إلا بقدر ما ينال النسيم المعلول من قمم الجبال.

بلادنا طوَّقت جميع البلاد بأغلال الديون العقلية والروحية، ولن يتنفس بلدٌ في شرق أو في غرب إلا وهو مدينٌ لمصر بديون ثقال.

لا تنسوا أن بلادكم دانت الفكر والعقل والروح ألوفًا من السنين؛ ولا تنسوا أن أكبر مجد يظفر به الأوربيُّ المثقَّف هو أن يحلَّ رمزًا من رموز آبائكم الأولين.

كان الحظ المصري القديم إشارات من ملامح الطير والحيوان، فما تفسير ذلك؟

يقول الجاهلون: إنه دليل على الطفولة التاريخية.

وأقول: إنه دليل على العبقرية المصرية؛ لأنه يجعل كل حرف كائنًا حيًّا من طير أو حيوان، والحروف خلائق حية عند من يعقلون.

ثم ماذا؟[1]

(١) مجلة الرسالة: ٣١ أغسطس/١٩٤١.

ثم أذكر أن بلادنا هي التي صدَّت المغول الوافدين من الشرق، وهي التي صدَّت الصليبيين الوافدين من الغرب، فكنا الميزان لأبناء ذلك الزمان.

ومن نحن اليوم؟

برغم قسوة الظروف قد استطعنا أن نقول: نحن، وأن نفي بالعهد؛ لأن مصر لا تكذب ولا تخون.

لن تضام مصر أبدًا؛ لأنها وطن الرجال، ولأنها أول وطن غلب الدهر الخوان.

أحبك يا وطني، أحبك يا بلادي، حبًّا لا ينتظر أي جزاء؛ لأنه أعظم من أي جزاء!

***

obeikandl.com

نفحة سودانية[١]

كان من توفيق الله أن نلتفت إلى الأدب في السودان بعض الالتفات، فبه أتيحت فرصة للتعرف إلى ما هنالك من روائع لو نُشرتْ لبهرت شعراء مصر والشام والعراق.

أقول هذا وأمامي قصيدة للشاعر محمد سعيد العباسي، قصيدة خفيفة الروح، حنَّ فيها إلى أيامه بمصر فقال:

ولو كان لي علمُ ما في غدٍ ... لما بعتُ مصر بسودانية
عدتني عن طيب ذاك الثواء ... نَوى قَذَفٌ خيلُها عادية
فودَّعتُها أمسِ لا عن قِلَى ... ولم تكن النفسُ بالسالية
إلى بلدٍ عشتُ فيه غريبًا ... بعيدًا عن الناس في ضاحية
أقيم بها من صدور المطيّ ... للمرخِ تُحدى وللصافية[٢]

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤٨٢ بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢٨.

(٢) المرخ والصافية: ماءان لبادية الكبابيش بالسودان.

لعلي أصيبُ بتلك البطاح ... صِباتي وذاهب أيامية
فلله كم جَنت الحادثات ... علي وأودتْ بآمالية
رعَى الله مصرَ فكم للأديب ... بهاكم من عيشةٍ راضيه
وأحببْ بأيامها الذاهبات ... على ما بها وعلى ما بية
قضينا بها غَفَلات الشباب ... بأحلى مذاقًا من العافية
تولّتْ سراعًا فيا ليتها ... تعود لنا مرةً ثانية
ويا قِبلة الخير لا تبعدي ... وحُيِّيت زاهرةً زاهية
ويا برقُ زُرها بوطف الغمامِ ... وحُلِّي عزاليك يا سارية
وإن تبخلي إن لن مُقلة ... هي المزن هامعةً هامية
بني مصر حيَّاكم ذو الجلال ... بعرف تحياته الزاكية
وأسدى بإحسانه منعمًا ... لكم كل صالحة باقية
بكم غدت اليوم أم اللغات ... كحسناء في برد ضافيه
حملتم بمصر وبالمشرقين ... رسالة آدابها العاليه
أجل وشأوتم بسحر البيان ... عباقرة الأعصر الخاليه
بيانٌ هو البدر في تمِّه ... يشقُّ حشا الليلة الداجيه
وكالورد يعبق مطولهُ ... أو المسك أو جونة الغاليه
بَلونا الكرام فكانوا البناء ... وكنتم به حَجَر الزاويهْ

فما رأيُ قراء «الرسالة» في هذا الكلام النفيس؟ ما رأيهم في شاعرٍ سوداني يحن إلى مصر هذا الحنين؟ وما جزاؤه على هذا التلطف النبيل؟

نحن لا نملك الجزاء على مثل هذا الوداد، فهو فوق الجزاء، ويكفي أن نقول: إنه شاعرٌ من السودان؛ السودان المصري، أعزه الله ورعاه ورحماه من جميع الأسواء.

وداد مصر للسودان ودادٌ صحيح، فليعرف السودانيون أننا لا نقبل أن يكونوا أوفى منا بأي حال، وسنعارض هذه القصيدة بقصائد، وسنريهم أن مصر تجزيهم صدقًا بصدق، وإخلاصًا بإخلاص.

أيها الأرواح الشوارد بأعالي النيل، أيها الحافظون لأمجاد الإسلام بالوادي السحيق، هل تعرفون مكانتكم في أنفس المصريين؟

لذلك حديث وأحاديث فانتظروا قليلًا، فسأقص من أخباركم ما تجهلون.

أيها الشاعر الذي حيا مصر، حياك الله وحياك ثم حياك، فقد طوقت جيد مصر بقلائد صيغت من حبات القلوب.

أهذا شعرٌ أم سحر؟

هو فوق الشعر وفوق السحر، هو إلهامٌ جادت به فِطرةٌ كريمة الأصل، في بلاد أبناؤها أصلاء.

وإلى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد تحيتي وثنائي، فهو الذي حمل إليَّ هذا القصيد، كما يحمل النسيم رسائل المحبوب إلى الحبيب.

***

بين مصر والعراق[1]

في هذا الأسبوع أنستُ بلقاء جمهور من الأساتذة المنتدبين للتدريس في العراق، وهم جميعًا ألسنةٌ تلهج بالثناء على الأريحية العراقية والذكاء العراقي.

ومن كلام الدكتور راجح والدكتور غالي والأستاذ قنديل عرفت أن دار المعلمين العالية بلغت من التفوق مبلغًا شرح صدور المؤمنين بعظمة العقلية العربية في العراق، وطن الأهل والأحباب.

ولكني تأذيت حين عرفت أن بعض المدرسين لا يريدون أن يعودوا لخدمة العلم في الوطن الشقيق؛ بحجة الخوف من تقلب الظروف، أو بحجة الشوق إلى الاستقرار في وطنهم الأول، وما دروا أن الاستقرار ضربٌ من ضروب الموت!

لو قلتُ الصدق كل الصدق لصرحت بأن من يريدون قطع صلتهم العلمية بالعراق ليسوا إلا شبانًا تعوزهم القدرة على فهم السرائر من الروحانية العراقية، فهم يعيشون هنالك عيش الغرباء بالفكر والروح، في بلاد قام كتابها على الفكر والروح.

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤٧٣ تاريخ ١٩٤٢/٧/٢٧.

في هؤلاء من يعتذر بأن العراق مهدد بالغلاء في هذه الأيام، فهل يكون فيهم من يدرك أن في تمرة أو تمرتين كفاية لمن يدعوه الواجب للقيام بخدمة علمية؟

وفي هؤلاء من يقول: إن مصر تنساه حين تطول إقامته بالعراق فلا ينال حظه من الترقيات.

وأقول: إن هذا لن يقع بعد تنظيم التعاون الثقافي بين مصر والعراق.

كيف يصبر من عرف العراق على فراق العراق؟

أنا أخشى أن يكون مفارقوه لم يعرفوه. وهل يغيب عني أن في العراقيين أنفسهم من يجهل المحاسن الأصيلة لوطنه الجميل؟

لقد عجب قومٌ من وفائي للعراق، وظنوني أستهديه منحةً من المنح الذواهب، ثم انقضى عجبهم حين عرفوا أن وفائي للعراق وفاء القلب لا وفاء الجيب؛ ولكن عجبهم سيبعث من جديد حين يعرفون أن في عنقي ديونًا للعراق، هي أكرم الأطواق، فما تلك الديون؟

رأيت العراق يكرم مصر في جميع مذاهبها العلمية والأدبية والتشريعية، ورأيته يفرح حين نفرح، ويلتاع حين نلتاع، ورأيت أنه بحق وصدق أخٌ شقيق.

مصر مسطورة الملامح فوق كل مكان في العراق، فما جزاءُ من يحبوننا هذا الحب؟ وما جزاء من يعرفون من أقدارنا الأدبية أكثر مما نعرف؟

تلك معان يجهلها من يبحث عن وظيفة توزن قيمتها بالدراهم والدنانير، وهي معانٍ يعرفها من يؤمن بأن الفناء في سبيل العروبة بابٌ من أبواب الخلود.

٢٧ يوليو/١٩٤٢

***

obeikandl.com

في بناء الجيل الجديد[1]

أعتقد أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل في تقسيم الحظوظ، بحيث يصير من المفهوم عند الجميع أن في مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب، إذا زوَّد نفسه بالزاد الذي يؤهله لما يتسامى إليه، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع.

ولكي نصل إلى هذه الغاية يجب أن نروض أنفسنا على فهم المراد من العدل، فقد يصرخ ناس ثم يصرخون بدعوى أنهم لم يؤهلوا أنفسهم لخوض معارك الحياة واقتحام أسوار المجد. وهذه آفة لم يسلم منها الناس في أي زمان.

نحن في الغالب نطالب بأكثر مما نستحق، وندعي لأنفسنا حقوقًا لم نبذل في سبيلها ما يجب بذله من الجهود، ثم نطيل التوجع والتفجع والتحسر على انعدام العدل. وهل عدلنا مع أنفسنا حتى نطالب غيرنا بالعدل؟

لا يجوز تضييع لحظة واحدة بلا استفادة علمية أو أدبية، ولا يجوز تضييع لحظة واحدة في القيل والقال إذا كنا نريد أن يكون لنا في الحياة السامية مكان، ومن آفات الناس في هذا العصر أن تكون المظاهر غاية ما يطلبون، فمن النادر أن نجد من يشتهي أن يكون نعيمه مقصورًا على

(١) مجلة الرسالة: ١٠ مايو ١٩٤٣.

المغانم الروحية، ومن النادر أن نجد من يفرح؛ لأن جيرانه في رغد وإن كان في حرمان.

والاعتماد على الحكومة في جميع الشئون أخطر آفات هذا الجيل؛ فالحكومة هي التي تصد بغي الناس بعضهم على بعض، والحكومة هي التي تضمن وجود الرغيف في السوق، والحكومة هي المسئولة عن كف يد الغريب عن ظلم القريب.

نحن نشغل بعدِّ المنافع عن عدِّ المآثم، وننسى محاسبة أنفسنا على الكسل البغيض، الكسل الذي يشل مواهبنا المكنونة ويضيفنا إلى جماعة المتواكلين.

ما هذا الذي نعاني من كوارث وخطوب؟

أقول هذا لأني أعرف أننا لا نلتفت لغير المصاعب التي تساق إلينا من بُعد، ونغفل عن المصاعب التي نخلقها بأيدينا؛ وهي المصاعب الناشئة عن غفوتنا الروحية والذوقية والعقلية. وصدق الرسول حين قال: ((**أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك**)).

الجهل الذميم بقوانين الوجود هو الذي يجعلنا نُلقي المسئولية على من لا يحملون عنا أية مسئولية، والفراق من التبعات هو أعظم شواهد الخذلان.

لو أنفقنا في محاسبة أنفسنا معشار ما ننفق في محاسبة الحكومة والمجتمع لوصلنا في جهاد النفس إلى أشياء. ولو تجنينا على أنفسنا كما

نتجنى على الحكومات والمجتمعات لتكَشَّفَت أنفسنا عن حقائق تهدينا في ظلمات الوجود.

محاسبة النفس لا تقع إلا عند يقظة النفس، فلنفهم أن رضانا عن أنفسنا في جميع الأحوال من دلائل السبات.

وأغرب ما نتورط فيه أننا نبالغ في تعقب عيوب الحكومات والمجتمعات، ثم ننتظر أن لا ترى فينا الحكومات والمجتمعات غير الجميل.

وما هي الحكومة؟

هي مجموعة أشخاص يتعرضون لما يتعرض له سائر الناس في المعاملات الفردية والاجتماعية، ومن حقهم أن يعاملوك بالعدل في الإساءة كما تحب أن يعاملوك بالعدل في الإحسان.

وما هو المجتمع؟

هو تلك الخلائق المبثوثة في القرى والمدن والأسواق، وهي على تنوعها العجيب قد تلتقي في المشاعر والعواطف من حين إلى حين.

وقد نخطئ فنتوهم أن تلك الخلائق تعجز عن تعقب العيون فيمن لا يرى فيها غير العيوب.

والمصلح في الجيل الجديد سيسأل أمام ضميره عن تجسيم المحاسن الأصيلة في المجتمع، وهي سر التماسك الاجتماعي، وبفضلها استطاع المجتمع المصري أن يقهر مصاعب كثيرة عانتها مصر في جيل إلى جيل.

وخلاصة القول: أني أدعو إلى محاسبة النفس قبل محاسبة الحكومة والمجتمع، وأرجو أن يؤمن كل فرد بأنه حجر الأساس في بناء الحكومة وبناء المجتمع، إن صحت النية على أن نكون من رجال الأخلاق.

***

وعاد زكي مبارك مرة أخرى إلى الحديث عن محاسبة النفس فكتب على صفحات مجلة الرسالة في الثامن والعشرين من يونية سنة ١٩٤٣ يقول تحت عنوان: «محاسبة النفس»:

«بدأت أشعر بضجر في هذه الأيام، وأخذت أشعر بانقباض في الصدر من حين إلى حين، فما سبب هذه الحال؟ وما هو الدواء؟

يخيل إليَّ -ولعل هذا هو الواقع- أني لا أؤدي حقوق القلم كما يجب، فأنا أتحامي شئونًا كثيرة، وأسكت عن آراء لو دونتها لكان لها في عالم الفكر مكان.

ويزيد في الضجر أن لحياتي ألوانًا جديرة بأن تقدم أثمن الغذاء لقلمي، فكيف يفوتني أن أنتفع بتلك الألوان؟

قد يقال: إن ظروف الحرب لها دخلٌ في الحدِّ من الحرية القلمية؛ لأنها تقهرنا على مراعاة أمور لم يكن من الحتم أن نراعيها في أيام السلام.

وهذا عذر غير مقبول؛ لأن الشئون التي تمس الحرب ليست كل ما يعتلج في صدور الرجال، فهنالك معضلات إنسانية تساور العقول

والقلوب في كل زمان، وهي معضلات لا تهادن الناس ولو كانوا في ميادين القتال.

وربما قيل: إن الشئون التي تعفيها ظروف الحرب لا تعفيها ظروف المجتمع، فقد تكون الرقابة التي يفرضها الجمهور على الأقلام أقسى من الرقابة التي تفرضها الحكومات في أيام الحروب.

وهذا أيضًا عذر غير مقبول، ففي مقدور المفكر أن يعالج شئون المجتمع بأسلوب يخلق الحب ويبعد العداء.

يظهر أن الآفة هي في طريقة الطب للمجتمع، الطريقة التي تلبس ثوب السيطرة بأقلام الناصحين، ونحن في الأغلب ننسى أن في فطرة الناس ميلًا إلى الدفاع عما يتورطون فيه من ضروب الانحراف، ونجهل أن العنف في النصح قد يخلق للعيوب أنصارًا يجعلون سيئاتها حسنات.

أنا موقن بأن سياسة القلم تعوزنا في أكثر ما نكتب، وسياسة القلم معنى لم نلتفت إليه؛ ألا ترى كيف نقضي العمر في شقاق مع القراء؟

أين الذي حاول أن يقدم النصيحة المرة في كلمة مغلفة بمجاج النحل؟

وأين الذي واجه الجمهور بأسلوب منزه عن الاستعلاء؟

هذه الحال تشبه أن تكون مرضًا من الأمراض القلمية، وللأقلام أمراض.

وأعترف بأن تحرير القلم من الآفات النفسية يحتاج إلى رياضات لا نقدر عليها في جميع الأحايين؛ لأن الرجل قد يقدر على محاسبة الجمهور ثم يعجز عن محاسبة النفس.

***

obeikandl.com

الوطن الذي يحفظ الجميل

مات المارشال جوفر في باريس فخفقت لموته قلوب الفرنسيين جميعًا، وأعلن الحداد العام على الرجل الذي كسب موقعة المارن، وأخذت الجرائد والمجلات تنشر ما عُرِفَ وما لم يعرف من أخباره وصوره وأعماله منذ كان يافعًا إلى أن اختطفه الموت.

وقد أثار هذا الحادث في نفسي أشجانًا محرقة: فقد التفت الذهن من فرنسا التي تحفظ الجميل إلى مصر التي تنكر الجميل. وإني لأرجو أن يحتمل القراء وقع هذه المؤاخذة، فإني لا أرضى أن أتملق عواطفهم وأهواءهم، وأظهرهم بمظهر الأوفياء لوطنهم وقومهم، على حين يرتطمون في أوحال العقوق.

كل شيء يتقدم في مصر إلا عاطفة الواجب نحو الجنود الذين خدموا الوطن في أمانة وإخلاص.

والذي يعيش في باريس يأخذه العجب مما انتثر في هذه المدينة من مئات التماثيل، ويكفي أن يتجول الرجل من حيٍّ إلى حي على قدميه ليعرف تاريخ فرنسا العلمي والأدبي والسياسي عن طريق التماثيل.

ولكن لا يحسب القراء أن التماثيل هنا تقام لمن هزوا فرنسا وأشعروها بوجودهم، وفرضوا عليها الوفاء لهم... كلا، ففي أكثر الأحيان تقام التماثيل لرجال لم يكن يخطر ببالهم أن سيكون لهم ذكر مأثور بعد الممات، وإنما ينتبه الشعب إلى مزايا رجاله، وخصائصهم، وتفوقهم فيما

انقطعوا له من علم أو أدب أو طب أو سياسة أو قانون، وكذلك تنظر فترى تمثالًا يقام لرجل نسيه الأهل والأصدقاء والأقربون، وليس له شيعة ولا حزب ولا أنصار، وكل ما في الأمر أن بعض المنصفين تنبه إليه ودعا الحكومة إلى إنقاذ ذكراه من جور الخمول.

والذين يستحقون الذكر في فرنسا لا يمجدون فقط في بقعة واحدة، وإنما تنتشر أسماؤهم في جميع المقاطعات والأقاليم، فاسم فيكتور هوجو مثلًا يطلق على عدد كثير من الشوارع والميادين في مختلف القرى والحواضر الفرنسية، وكذلك اسم جان جاك روسو وفولتير وموليير، ومن إليهم من رجال العلم والأدب والفن والسياسة والتشريع.

هذا في فرنسا، أما في مصر؟

أنا لا أذكر أنه أقيمت في مصر تماثيل شعبية، فإن التماثيل القليلة يرجع السر في وجودها إلى بعض الرغبات العالية، أما الشعب نفسه فيحتاج إلى من يهذب ذوقه ويروِّضه على تقديس الأوفياء من زعمائه ومعلميه، وحسب القارئ أن يذكر أنه كان من الممكن أن تتلاشى فكرة تمثال زغلول، ولولا قوة الوفد لوضع ألف غطاء على تمثال سعد وضريحه، وكان من الجائز أن نشهد هذه المهزلة ونحن أحياء.

فإذا خلينا سعد باشا جانبًا، ورجعنا إلى مصطفى كامل تبينا الحقيقة، فإن تدهور الحزب الوطني كان كافيًا؛ لأن ينسى معه اسم مصطفى كامل ومحمد فريد، وكان على الشعب أن يفهم أن زعماء الحزب الوطني الأولين غير مسئولين عن «البرودة» التي يخبُّ فيها أشياع الحزب الوطني في الوقت الحاضر، وقد أذكر أن الوفد المصري تقدم في أواخر سنة

١٩١٩ إلى الاحتفال بتأبين محمد فريد، فدل بذلك على تقديره لعظمة الرجل، مع أن الخصومة بين الوفد والحزب الوطني كانت إذ ذاك أحر ما يكون.

هذا حظ رجال السياسة والوطنية في مصر، مع ما لهم من الأثر الفعال في طبع أسمائهم في الرءوس.

أما رجال العلم والأدب والتشريع الذين يعملون في تواضع وهدوء، فإن نسيانهم حتم لا ريب فيه، فكم فكر الناس في إحياء ذكرى إسماعيل صبري باشا ثم سكتوا، وكم صاح الصائحون بإحياء ذكرى الشيخ محمد عبده ثم هجعوا.

ومع هذا العقوق لا يزال في مصر ناس يشقون لتسعد أمتهم ويموتون لتعيش. وبفضل هؤلاء الضحايا؛ ضحايا نكران الجميل، يحيا الكاندون الجاحدون[1]!

***

(١) البدائع: ج٢ ص١٥٨.

الحرية، الحرية![1]

وقف «المترو» ظهر اليوم عند مدخل مصر الجديدة، ثم طال به الوقوف، فنزلت لأعرف السبب، فرأيت قطارات كثيرة يعاني ركابها مثل ما نعاني من التعطيل، وكان السبب أن قطارًا أصيب بعطب فعطل جميع القطارات.

والتفت فرأيت الأستاذ سعد اللبان ينتظر مع المنتظرين، فوجهت نظره إلى الفرق بين «المترو» و«الأوتوبيس».

- أتريد يا دكتور أن تستغل هذا المنظر لكلمة في مجلة «الرسالة»؟

- أنت تعرف يا صديقي أني أنتفع من جميع مشاهداتي!

- وماذا ترى في هذا المنظر مما ينفع؟

- سأقول لقرائي وأقول... سأقول: إن «المترو» حين يعطب منه قطار تُعطَّل جميع القطارات، ولا كذلك الأوتوبيس.

- أوضح ما تعنيه بعض الإيضاح.

- المترو يسير في طريق مرسوم تحدده هذه القضبان، فهو في حقيقة الأمر مسجون؛ أما «الأوتوبيس»، فيسير في الطريق كيف شاء، وهو لا يعطل أخاه إن أصيب بعطب في الطريق.

---

(١) الرسالة في الخامس من أكتوبر/١٩٤٢.

- وإذن؟

- وإذن تكون الحرية أساسًا لكل فلاح.

- ثم ماذا، على حد تعبيرك؟

ثم تكون الأخلاق الفردية والقومية مما يتأثر بالتفاوت في مثل هذا النظام؛ فالرجل الذي يسير على منهاج واحد طول حياته يُعطَّل عن المسير من وقت إلى وقت، والأمة التي تلتزم خطة واحدة في حياتها السياسية والاقتصادية تعطل عن الانتفاع بما يجد في الدنيا من تطورات وتغيرات.

- أنت إذن لا تقول بالثبات على المبدأ.

- المبدأ هو الغاية، وهي لا تختلف، والوسائل هي الطرائق، والطرائق تختلف من يوم إلى يوم باختلاف الظروف.

- ولكن الناس لا يفرقون بين الوفاء للغايات والوفاء للوسائل!

- وهل فهم الناس جميع الدقائق في الأخلاق الفردية والقومية؟

وسار المترو فانقطع الحديث.

***

المكتبة المصرية

المكاتب من أهم المقاييس في تقدير الحضارة والمدنية، فهل عندنا مكاتب تمثل يقظتنا العقلية والأدبية؟ لننظر أولًا في القاهرة، هل يوجد فيها مكتبة واحدة تمثل نهضة الأدب الحديث، هل توجد مكتبة كل ذخيرتها مما أبدع المعاصرون في العلوم والفنون والآداب، لا تذكروا مكاتب الفجالة، فهي على كثرتها مكاتب مدرسية، والكتب المدرسية لو وضعت عند باعة الخبز والفول لذهب الطلبة فاشتروها من هناك، ولا تذكروا المكاتب الأزهرية، فليس فيها كتاب من الأدب الحديث، وهي مع ذلك لا تمثل شوق المصريين إلى الدرس؛ لأنها - في الأغلب- تُباع في غير مصر، ويقرؤها طلاب العلوم الدينية واللغوية في بقية الأقطار الإسلامية. فماذا يبقى في القاهرة من المكاتب؟ كان عندنا ناشر مصري هو صاحب المكتبة التجارية، وكان يهتم بالأدب الحديث! ولكن الأيام علمته كيف يقبل على الكتب القديمة فيبعثها من مراقدها ليتصل بالمسلمين في جاوى والهند، وتلك رجعة خطرة ستكون من مقاتل الأدب الحديث.

والإسكندرية؟! من كان يظن أن تلك المدينة العظيمة ليس فيها مكتبة واحدة مصرية، مع أن فيها مكاتب كثيرة لنشر المطبوعات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. قد يكون فيها مكتبة أو مكتبتان من النوع الهزيل الذي يفضحنا إذا قيس بما هنالك من المكاتب الأجنبية. هذا والإسكندرية هي العاصمة الثانية وفيها من المدارس والمعاهد ما يغري بالتفنن في إنشاء المكاتب، لو كان عندنا قراء يقبلون على الأدب الحديث.

وبورسعيد؟ إن القارئ يجب أن يعلم أن بورسعيد تزدان بطائفة من المكاتب الأجنبية، وليس فيها مع ذلك مكتبة مصرية واحدة، فكيف كتب

الكسل والتغافل والخمود على أهل هذه البلاد؟

وأسيوط؟ أسيوط المدينة الرشيقة التي تعد عاصمة الصعيد، هل فيها مكاتب مصرية، وهل يستطيع المتشوف أن يصل إلى كتاب حديث وهو في تلك المدينة الحافلة بالأندية والمدارس والمعاهد.

وأسوان؟ أسوان المدينة التي يؤمها ألوف الأغنياء والمثقفين في كل شتاء، هل استطاع المستنيرون فيها أن يبيضوا وجه مصر بمكتبة واحدة تذكر بأمثالها في المدن التي يزورها كبار الناس؟

إنَّ فقر «المكتبة المصرية» عار على مصر؛ وهذا العار يحمل أوزاره المتعلمون الكسالى الذين يقل تطلعهم وتشوفهم إلى ما يجدُّ في سوق العلوم والفنون والآداب. وبعض هذا العار يرجع إلى الأساتذة الذين يندر أن يحدثوا تلاميذهم عن كتاب جديد، وكيف وأكثر المدرسين يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش، وهم على غفلتهم يتعالمون ويتفاصحون؛ لأن الزمن الغادر مكن الكسالى من دور التعليم والتثقيف؟!

في مثل مدينة القاهرة من المدن الأوربية والأمريكية توجد مكاتب خاصة بالطب، ومكاتب خاصة بالقانون، ومكاتب خاصة بالفلسفة، ومكاتب خاصة بالأدب، ومكاتب خاصة بالطيران، ولكن عاصمتنا لا توجد فيها مكتبة واحدة تجمع ما أبدع المعاصرون في تلك الفنون، فيا ضيعة العلم والأدب في هذه البلاد!!

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣

كتاب البدائع ص٣٧

مصادر الأدب القديم[1]

ومراجع العلم الحديث

حضرة الصديق العزيز الأستاذ سامي الكيالي:

سألتموني عما أرى في إحياء الأدب القديم، وما أرى في نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية، وهاتان مشكلتان حار في حلهما كثير من المفكرين، وإنما وقعت تلك الحيرة لأنه لا بد للباحث من الرجوع إلى مصادر الأدب القديم ومراجع العلم الحديث.

ويؤلمني أن أصرح بأن العزائم تراخت في هذه الأيام عن إحياء الأدب القديم، ويكفي أن تذكروا ما صنعت مطبعة بولاق بالقاهرة لتعرفوا أنه لم يتفق لأية هيئة علمية أو أدبية أن تصنع ما صنعت تلك المطبعة في بضع سنين، ومن المحزن أن المؤلفين في تاريخ الأدب للمدارس الثانوية يسكتون عن تاريخ تلك المطبعة وتراجم مصححيها سكوتًا تامًّا، ولو وفقهم الله إلى الحديث عنها لرجونا أن يخلق الشوق إلى إحياء الأدب القديم في بعض النفوس.

وما رأيك إذا حدثتك أن الجيل الذي سلف قام بأعباء ستعجز عنها سائر الأجيال، إن لم يرفع الغبار عن بعض ما نعرف من القلوب؟ لقد قام ذلك الجيل بطبع «تاج العروس» فهل تنتظر أن يطبع ذلك المعجم مرة ثانية؟ لقد قام الجيل السالف بطبع «شرح الإحياء» فهل يخطر ببالك أن ذلك الشرح سيطبع مرة ثانية؟ هيهات هيهات.

---

(١) وحي بغداد: ص٧٩.

إنَّ معجم «لسان العرب» وهو أعظم معجم عرفته اللغة العربية طبعه فيما سلف رجل، ثم كان جزاؤه أن يموت تحت أثقال الديون، فهل في أدباء هذا العصر من فكر في كتابة فصل ممتع، أو قصة شائقة، عن حياة ذلك الشهيد؟

و«شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة» الذي نشرته مكتبة الحلبي فيما سلف، وكتاب «الأم» الذي ألفه البويطي ونسب خطأ إلى الشافعي، ونشره الحسيني، وكتاب «المخصص لابن سيده»، أترى تلك المؤلفات تنشر مرة ثانية على أيدي هذا الجيل الكسلان؟!

هناك فكرة ترمي إلى أن يقوم المجمع اللغوي في مصر بإحياء الأدب القديم، وهذه الفكرة لها خصوم ولها أنصار، فإن انتصرت يومًا فسيحيا الأمل في بعث الأدب، أما الجهود الحاضرة، جهود الأدباء الذين ينشرون ما يقدرون على نشره من قديم المؤلفات، فهي جهود مشكورة، ولكنها لن تصل بنا إلى ما نريد. وحسبك أن تذكر أن أدباء هذه الأيام لا ينشرون من المؤلفات القديمة إلا ما يعرفون أنه قريب من أذهان المتأدبين لتعرف أن هذا النوع من النشر سيقف عند الكتب التي تكثر فيها الأشعار والأسمار والأحاديث، ثم يعجز عن طبع الكتب العلمية التي لا تجد جمهورًا كبيرًا من القراء.

وقد جربت هذا بنفسي فأحييت كتاب «زهر الآداب» وأحييت «الرسالة العذراء»؛ أما «زهر الآداب» فقد راج وطبع مرتين، وأما «الرسالة العذراء» فلا تزال نسخها مكدسة في بيتي، ولا أعرف أين أصرفها؛ لأنها تبحث مسألة أدبية دقيقة لا يهتم بها غير الخواص، والخواص في الأمم العربية

لا يحيا بهم كتاب؛ لأنهم يدعون الإحاطة بكل شيء، وأكثرهم يضن على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش!

وما جربته بنفسي جربه أكثر المعاصرين، فهم يقفون فيما ينشرون عند الكتب التي يفهمها الجمهور، ويحجمون عن نشر الكتب التي تنفع الخواص.

وهل هناك أعجب من قصة السيد رشيد رضا مع كتاب «دلائل الإعجاز»؟ لقد حدثنا في مقدمة الطبعة الثانية أنه لولا عناية وزارة المعارف لظلت الطبعة الأولى مهجورة لا تعرف غير الصناديق، وكذلك كان حال كتاب «أسرار البلاغة» الذي لم تنفد طبعته الأولى، مع أنه نشر منذ ثلاثين عامًا أو تزيد...

فيا صاحب مجلة الحديث تذكر أن الأدب القديم لن يظفر بالحياة إلا إن وجدت له هيئة حكومية تسترخص في سبيله الألوف المؤلفة من الدنانير، وتفرضه على الطلبة، والأساتذة أيضًا، إلى أن يخلق الذوق الأدبي الذي يحبب إلى الأفراد قمة التضحية في هذه السبيل.

وأمَّا نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية فلي في شأنه اقتراح قديم أخذت به وزارة المعارف المصرية في عهد الوزير الأسبق محمد حلمي عيسى باشا وألفت لجنة لتنفيذه، ثم سكتت عنه بعد أن فارقها ذلك الوزير. وخلاصة ما اقترحته على الوزارة أن تفرض على كل طالب من أعضاء البعثات أن يترجم إلى اللغة العربية كتابين من أمهات الكتب في العلم الذي يخصص فيه، ثم لا تعد بعثته قد تمت إلا بعد أن يؤدي هذا

الواجب؛ أي لا يمنح ترقية أو علاوة بعد عودته إلا يوم يتضح أنه نقل إلى أمته شيئًا من العلم بترجمة كتابين عظيمين.

وكان من فروع هذا الاقتراح أن تقوم الوزارة بطبع تلك المترجمات ثم توزعها على المدرسين والموظفين والمتأدبين بثمن مقبول، وكان من رأيي أن تخصم الحكومة من كل موظف عشرة قروش في كل شهر، ثم تعطيه في مقابل ذلك نحو عشرة كتب في كل عام، وبذلك تفرض الثقافة العلمية على جمهور الموظفين، ثم تنتقل العدوى العلمية إلى أبنائهم وإخوتهم ومن يتصلون بهم من الشباب والكهول.

ولا أزال أعتقد أن هذا الاقتراح سهل التنفيذ، فهل يمكن بعثه مرة ثانية بفضل نشره على صفحات الحديث؟

أرجو إن راقكم هذا الرأي أن تكتبوا في تأييده مرة أو مرتين، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، والسلام.

***

الجيش المرابط في الميادين الفكرية

هو جيش الأدباء الصابرين على مكاره الحياة الأدبية، وهي حياة لا يصبر على مصاعبها الثقال، إلا من تقهره الفطرة على الأنس بالأدب في جميع الأحوال.

وقد شهد التاريخ واعترف بأن الأمم لا يقام لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظًّا من الروحانية الفكرية والأدبية؛ لأن الفكر والأدب لا يكونان من أنصبة الشعوب، إلا بعد النضج المنشود في العقول والقلوب.

فما بال قومٍ يزعمون أن اشتغال بعض المصريين بالشئون الفكرية والأدبية في هذه الأيام دليلٌ على أن مصر لا تشعر شعورًا صحيحًا بالمتاعب الدولية؟

هذا كلامٌ قيل في بعض المجلات، وأضيفَ إليه أن فلانًا لا يعيش في زمانه؛ لأنه نسي أن الدنيا في حرب، فشغل نفسه بالحديث عن الفروق بين رجال الأدب ورجال القضاء.

وأقول للمرة الأولى بعد الألف: إن الأديب المفكر ليس أجيرًا لزمانه، وليس أجيرًا للوطن ولا للمجتمع، فمن توهم أن الأديب المفكر مسئول أمام قوة غير قوة الضمير فهو من أكابر الجاهلين!

نحن نخدم الوطن بأقلامنا خدمة لا يعرفها المتحذلقون من عبيد الشواغل اليومية، نخدمه صادقين لا كاذبين، ولا ننتظر منه أي جزاء؛ لأن خدماتنا تجل عن الجزاء.

وماذا يملك الوطن حتى يكافئ المجاهدين من أرباب الأقلام؟

أيمنحهم الألقاب؟ أيمنحهم الأموال؟

وأي لقب أفخم من لقب الأديب؟ وأي ثروةٍ أعظم من روح الأديب؟

أستغفر الله، وأعتذر إلى الوطن الغالي.

فجزاء الأديب من وطنه مضمون مضمون؛ لأن الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا إلى الأديب، ولا يجود بسرائره الروحية لغير الأديب، ولأن الوطن يأبى أن يكون أساتذته من طبقة غير طبقة الأوفياء من الأدباء.

خُدام الوطن في غير ميدان الأدب يُجْزَون بالألقاب والأموال؛ لأن خدماتهم تحتاج إل تشجيع من ألوان الجزاء، أما خدام الوطن في ميدان الأدب فهم أعز وأشرف من أن تصدهم عن الواجب عوادي النكران والجحود.

وهل نخدم الوطن أو نحب طائعين، حتى نمنَّ عليه بالخدمة والحب؟

هيهات ثم هيهات!

إنما نحب مصر الغالية مأخوذين بسحرها الأخاذ، ومفتونين بجمالها الفتان، وهل في الدنيا أكرم أو أجمل من مصر؟

إن مصر لم تبخل بالعيش على من يحارب الأدب والبيان، ولو شئت لقلت: إن مصر تكرم أعداء الفكر والعقل تأسيًا بكرم الله، والكريم يُفضل على الطفيليين بأغزر مما يفضل على المدعوين.

الدنيا في حرب، والقتال تدور رحاه حول الحدود المصرية، ومجلة الرسالة لا تجد قوتها من الورق إلا بشقِّ النفس.

وبالرغم من هذا وذاك فجذوة الفكر في اشتعال، وصوت مصر الأدبي في ارتفاع، والعاقبة للصابرين.

الآن عرفتُك، يا وطني، عرفتُك عرفتك.

لا تستطيع الخطوب أن تُخرس بُلبلًا يغردُ في رياضك الغناء، ولا يملك الدهر أن يُسكت صرير القلم في صحائفك البيضاء.

وطني!

لو ظهرت أشراط الساعة، نذيرًا بقيام القيامة، وخرست الألسنة وجفت الأقلام، وشُغل المرء عن أخيه، وزوجته وبنيه، لرأيت من واجبي أن أرفع القلم لصوتك وقلمك، وأن أجعل آيتك في البيان خاتمة آيات الوجود.

وطني!

أنت أقدم وطن وأعظم وطن خط بالقلم، وسطر مآسي الأرواح، ومصائر القلوب، فإليك في اللأواء أهب سنان قلمي.

وطني!

إن جهلت من أنا، فإني أعرف من أنت، والحياة صراعٌ بين الجهل والعلم، واليأس والرجاء، وسأعرف كيف أجزيك على فنائي فيك.

٦ يوليو ١٩٤٢

خواطر ليلة الميلاد[1]

كان لي مع هذه الليلة تواريخ في القاهرة وباريس، تواريخ أبدعها الجو الطروب أو الجو العبوس، فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن تحمل ليلة الميلاد أكدارًا ومنغصات؛ لأن الغالب في البيوت الفرنسية أن يكون الزوجان عاشقين، وأن تكون نيران الغيرة مما يُشبُّ في ليلة العيد حول «شجرة الميلاد». وما أسعد من يعيش وهو معذَّب بلواذع الوجدان!

ما أذكر مرةً أن تلك الليلة مضت دون عواصف، إلا أن تكون في بيوت فرغ أهلها من مصارعة الأهواء، وهي فيما عدا ذلك ليلة متاعب وكروب.

وهذه الظاهرة هي سر جمال هذه الليلة، فاصطراع العواطف ميلادٌ جديد، وقد يفعل فعل السحر في إحياء المشاعر والقلوب. كنت أقضي هذه الليلة في بيوت أعرف من أحوالها أشياء، فكنت أفهم الرموز والتلاميح، وكنت أجد التفاسير لبعض دقائق الأدب الفرنسي، وهو أدبٌ قام على أساس الفهم للسريرة الإنسانية، وسيعيش إلى أزمان وأزمان، ما دام في الدنيا ناسٌ يحبون الأدب الصادق الصريح.

ثم جاءت هذه الحرب فقضت في مصير فرنسا بما قضت، ولم يبق لأصدقائي الفرنسيين من زاد غير الحزن الوجيع، فأنا لا أزورهم في ليلة الميلاد كما كنت أصنع، ولا ألقاهم إلا في الحين بعد الحين، فهناك أحزان تؤرثها المواساة وتزيدها اشتعالًا إلى اشتعال.

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤٩٦ في الرابع من يناير سنة ١٩٤٣.

وهنا أذكر أني عرفت أخيرًا أن سقوط باريس لم يُحزن أهل باريس بقدر ما نتصور، ولم يشعرهم بمعاني الامتهان. وتفسير ذلك عند الأستاذ توفيق وهبة أنهم قومٌ تعودوا الهزائم والانتصارات، ولم تكن الدنيا في أنظارهم غير مواسم للانخفاض والارتفاع.

ولكني مع هذا أقرر أن حال الفرنسيين المقيمين بمصر يختلف عن حال مواطنيهم هناك؛ لأن المغترب يتعلق بوطنه تعلقًا لا يحسه المقيم، وقد تأكد عندي هذا المعنى في الأعوام التي قضيتها في باريس وفي بغداد، فقد كان الخبر السيئ يؤرق نَوْمي مهما صَغُر وهان، وكان أي حرف يُكتب ضد مصر يؤذيني، فأرد عليه في الحال.

أكتب هذه السطور في ليلة الميلاد، وفي خيالي بيوتٌ عزيزة كنت أحب أن أراها وكانت تحب أن تراني. وسيقول قومٌ كلامًا كالذي قالوه يوم نشرت «الرسالة» مقالي في التفجع لسقوط باريس!

كانت فرنسا أمة استعمارية فشمت بانهزامها من يؤذيهم بَغْيُ المستعمرين، وفاتهم أن فرنسا أعطت جميع الشعوب درسًا سينتفعون به حامدين أو جاهدين.

كانت فرنسا ترى أن اللغة هي عنوان الأمة، وكانت ترى أن الوطن الذي لا يسيطر بالفكر على خصومه ومنافسيه وطنٌ ضعيف. ومن أجل هذا أنفقت فرنسا ما أنفقت من الأموال ليكون لها مدارس في جميع البلاد، وبفضل هذه العناية صارت اللغة الفرنسية لغة دولية، وصار من حق الفرنسي أن يعفي نفسه من العناء في تعلم اللغات؛ لأنه سيجد من يتفاهم معهم بلغته في أي بلد يتوجه إليه، ولو في الصين!

اقترحتُ في سنة ١٩٣٨ أن ننشئ مدرسة مصرية تنافس المدرسة الفرنسية في طهران، فلم أجد من يسمع كلامي. وأين من يعرف أن في طهران جريدة إيرانية لغتها الفرنسية؟

فوجئت يومًا وأنا بدار المعلمين العالية في بغداد بمجموعات فخمة ضخمة من المؤلفات الفرنسية، وحين سألت عن مصدرها عرفت أنها هدية مرسلة من باريس.

وقد استوحيت هذا الشاهد فاقترحت فيما بعد أن ترسل وزارة المعارف المصرية هدايا من الكتب المكدسة في المخازن إلى المدارس الأجنبية، فترددت الوزارة عامين، ثم تلطفت فأهدت مجموعات هزيلة، مع أن في مخازنها مجلدات مهجورة ستباع يومًا بلا ميزان؛ لأن حراستها وصيانتها تجشمان الوزارة ضروبًا من التكاليف.

كانت فرنسا تقوم بمبادلة الأساتذة والتلاميذ، لتعطي وتأخذ، ولتفيد وتستفيد، وقد أقامت في إحدى ضواحي باريس مدينة تبني فيها أية أمة لأبنائها ما تشاء، ولقد استفادت أممٌ كثيرة من هذه المزية، إلا مصر، ولهذا تفصيلٌ قد يتأذى «الشمسي باشا» من تسجيله في هذا الحديث.

ونحن اليوم في أوج صلاتنا مع الشرق، فعند الشرق مدرسون مصريون يعدون بالمئات، ومع هذا لم تفكر مصر في ردِّ الجميل.

ما الذي يمنع من أن تستقدم مصر بعض الأساتذة من الشرق ليدرسوا في معاهدها العالية بأساليبهم الخواص: فهذا في كلية الآداب، وذاك في دار العلوم، وذلك في كلية اللغة العربية، إلى آخر ما يصلح له علماء الشرق؟

ليس معنى هذا أن مصر في احتياج إلى مدرسين، وكيف وفي خريجي المعاهد العالية شبان أكفياء لا يجدون ما أعدوا له من المناصب التعليمية؟

إن لهذه المسألة وضعًا غير هذا الوضع، والمراد هو أن تفكر مصر في إتاحة الفرصة لبعض أساتذة الشرق، الفرصة التي تمكنهم من الوقوف على التيارات العلمية والأدبية في الديار المصرية، فمصر اليوم في ازدهار علمي وأدبي لم تشهد مثله من قبل، وهو ازدهار يوحي إلى الأساتذة أكثر مما يوحي إلى الطلاب، وقد يكون في وجود أولئك الأساتذة فرص لمنافسات علمية وأدبية تعود علينا بأجزل النفع، وقد يكون في وجودهم خير للطلبة الذين حضروا إلينا من بلادهم، فأنا ألاحظ أن أكثر الطلبة الشرقيين لا يجدون من يعاونهم على الاستفادة الصحيحة من الإقامة بهذه البلاد.

إنَّ مصر في عهدها الحاضر تنشئ تاريخًا جديدًا في الشرق، وهي في طريق الوصل إلى عقد معاهدات ثقافية مع أكثر أمم الشرق، وهذا يوجب عليها أن تعرف الشرق أكثر مما تعرف، فيكون لها فيه سفراء روحيون، ويكون عندها منه سفراء روحيون، لو دعونا جماعة من أساتذة الشرق ليحدثونا عما في بلادهم من تقاليد وآراء وآداب لحمدوا لنا هذا الصنيع، وعدوه تلطفًا يستحق الثناء.

ويظهر أنه لا بد من إنشاء قلم بوزارة الخارجية لمراجعة ما يكتب عن مصر في جرائد الشرق، وتكون مهمته المبادرة إلى تصحيح ما يستوجب التصحيح، وتكون مهمته أيضًا أن يستصدر أعدادًا خاصة من بعض جرائد الشرق للتعريف بمصر كالذي تصنع وزارة الخارجية في استصدار أعداد خاصة من بعض الجرائد الإنجليزية والأمريكية.

وهنا أشير إلى حادث ما ذكرته إلا شعرت بالحزن يعصر قلبي، في سنة ١٩٣٩ أصدرت مجلة «الحديث» ومجلة «العرفان» ومجلة «المكشوف» أعدادًا خاصة بمصر، أعدادًا نفيسة جدًّا، ومع هذا لم أستطع إقناع «وزارة المعارف» بأن تشتري من تلك الأعداد مجموعات لمكتبات المدارس؛ ليعرف الذين فكروا في التنويه بمصر أن كرمهم لا يضيع.

وفي تلك الأيام كنت أقترح على الأستاذ الزيات أن تصدر الرسالة أعدادًا خاصة عن الأمم العربية، فرحب بالاقتراح وأجل تنفيذه إلى انقضاء الصيف، ثم بدا له بعد ذلك أن يواجه المشروع من جديد، فصدته أزمة الورق عما يريد.

ما لي ولهذا الكلام؟

هذه ليلة الميلاد، والأثير ينقل إلى سمعي بعض ما يثور في شوارع مصر الجديدة من عجيج وضجيج، فكيف آثرتُ الاعتكاف في هذه الليلة، وقد تفضل شهر ذي الحجة فجعلها قمراء؟

لعلني أردت الخلوة إلى قلمي، وهو الأنس الأنيس عند اعتكار الظلمات في دياجي الزمان.

لعلني أردت بهذه الخطرات القومية أن أتجنب الخلوة إلى قلبي، وهو عدو صديق.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بُدُّ

قضيت ما قضيت من حياتي في دراسة الجمال، حيثما كان الجمال، فأنا لا أضيف حرفًا إلى حرف إلا بميزان، وأنا أصادق وأعادي بوحي

الذوق لا بوحي النفع، وما الموجب لأن أكون نفعيًا وقد أغناني الله عن جميع الخلائق، ولم أعرف ما الظمأ والجوع في أي يوم، ولا جاز في وهمي أن أتصور أن الله قد يتخلى عني؟ لي صداقات كثيرة مع أرواح تنطق بالأوراق لا بالألفاظ، وأقسم جهد اليمين أن بحديقة داري في سنتريس أشجارًا يعتريها الذبول إن صدفتُ عنها أسابيع.

لي صديق هو اليوم أحد مدرسي الفلسفة بكلية الآداب وهو الأستاذ محمود الخضيري، وكان لي معه حديث في «إيسكوار مونج» في نوفمبر سنة ١٩٣٠، فما ذلك الحديث؟

كنت أجلس في بعض الضحوات «بذلك الإيسكوار»، وهو حديقة الحي في الاصطلاح الفرنسي، كنت أجلس تحت شجرة يؤنسها أن ترى رجلًا بيده كتاب، وكان أصدقائي من بعثة الجامعة المصرية يعرفون كيف يلقونني هناك. وفي ذات يوم حضر الأستاذ محمود الخضيري فوجدني أجادل رجلًا يحاول تشذيب تلك الشجرة بعنف، فأنكر عليَّ ما أصنع، فقلت: إن الشجرة تصرخ، ومن واجب من استظل بظلها أن يدفع عنها العدوان. فقال: وهل يحس الشجر والنبات؟ فقلت: نعم، ويتألم الشجر والنبات كما يتألم الحيوان!

وبعد شهور حدثتنا جرائد باريس أن جلالة الملك فؤاد قد استقدم عالمًا هنديًا اسمه «بوز» ليلقي في الجمعية الجغرافية محاضرات عن نظريته في إحساس النبات!

إحساسي بالوجود هو سبب عنائي، ولو عرف الناس هذا العناء لقاتلوني عليه، فهو أطيب الأطايب في ثمرات الحياة.

لم أدخل بلدًا إلا أحببته أصدق الحب؛ لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان. وما صادقت إنسانًا وغدرت به أبدًا؛ لأني أرى الصداقة من أظهر الدلائل على صحة القول بوحدة الوجود.

وأنا أترحم وأتحسر وأتفجع كلما رأيت إنسانًا يكذب أو ينافق في سبيل العيش، فالموت الذي يخافه الناس لن يصل يومًا عن طريق الجوع. ولو نظر الناس في أسباب أمراضهم لوجدوها ترجع إلى الإفلاط في الطعام والشراب ولو كانوا من الفقراء.

***

obeikandl.com